الإلحاد ونظرية التقصير الأبوي

أشهر التفسيرات النفسية للإلحاد (انكسار سلطة الأب).

يقول عالم النفس الأمريكي الشهير «بول فيتز»: لا شك أن طرح فرويد تفسير نشأة الإلحاد من خلال عقدة أوديب نفسها ليس مقبولًا لدى الكثير من علماء النفس، حتى الملحدين منهم، فإذا كان دور الأب محوريًّا في حياة الطفل فإن تفسير الدوافع اللاواعية في حياتنا من خلال رغبة الطفل الجنسية في أمه، والصراع الأزلي مع الأب أبعد ما يكون طرحًا جيدًا، ليس لمنافاته لنظرتنا وقيمنا الأخلاقية، فذلك لا اعتبار له في العلم لكن ببساطة لأنه ليس هناك دليل واحد معتبر على هذا الطرح.

ويضيف «بول فيتز»: ولما كنت كعالم نفساني لا أجد في الساحة تفسير نفساني للإلحاد إلا طرح فرويد كنت أشعر دائمًا بالحاجة لطرح أصوب، وقد دفعني ذلك إلى البحث عن طرح جديد والاستدلال عليه ثم عرضه على الساحة العلمية.

ولأكون أمينًا فإن ما طرحته لم يكن جديدًا كل الجدة ولا طرحًا أصيلًا كما نقول بلغة العلم، فقد كان طرحي استكمالًا واستدلالًا على طرح ألمح إليه فرويد بشكل عابر أي أنني لم أبتكر النظرية، ففي مقالته عن ليوناردو دافنشي، يقول فرويد: إذا كان التحليل النفسي بين العلاقة الوثيقة بين منظومة الأبوة وبين الإيمان بالإله، فإن التحليل يرينا أيضًا أن الإله المتجسد ليس إلا تمجيدًا للأبوة. ويؤكد ذلك المعنى ما نرصده يوميًّا من أن الصبية يفقدون إيمانهم بالإله فور أن ينكسر داخلهم الشعور بسلطة الأب.

ويعلق بول فيتز على هذه الإشارة قائلًا: «إن هذا التلميح لفرويد خال من ترهات الرغبة الجنسية اللاشعورية في الأم، وخال من الطبيعة الصراعية

التنافسية في العلاقة بين الابن والأب وأصيب بخيبة أمل، فإنه يفقد احترامه لهذا الأب وبالتالي يستحيل الإيمان بالمقابل الذي في السماء».

ملامح النظرية:

ونمهد لعرض أدلة بول فيتز على نظريته التي صارت تعرف بـ «نظرية التقصير الأبوي» بالإجابة عن بعض التساؤلات وطرح بعض الملاحظات.

أ - لماذا كانت العلاقة بين الابن والأب بهذه الأهمية في المنظومة الإيمانية؟ يمكن تفسير ذلك من خلال ثلاث أطروحات:

الطرح الأول: هو ما يعرضه بول فيتز من خلال نظريته في التقصير الأبوي ويتداخل مع هذا الطرح المفهوم الديني الذي يدور حول طبيعة الإنسانية، فالإله قد خلق الإنسان على صورته، بل إن العلاقة بين الإله والإنسان تشبه العلاقة بين الأب وابنه، حيث إننا في تربيتنا لأبنائنا نشبه الإله بالأب بشكل مباشر كما نطلق على الأب مصطلح رب البيت. وفي إطار هذين الطرحين يصبح الأب المثالي رمزًا طيبًا للأبناء جديرًا بالحب، وبالمثل يمثل الأب المقصر رمزًا سيئًا جديرًا بالبغض، مما يجعل الأبناء يسقطون أو ينتقلون أو يزيحون هذه المشاعر إلى الإله مما يشكل خطرًا على المنظومة الإيمانية.

وبالطبع فالطرح الثالث «فرويد» الذي ينطلق من عقدة أوديب والذي تآكل مؤيده.

ب - ما أسباب فقدان الصغير لاحترامه لأبيه؟

١ - أن يسيء الأب معاملة ابنه / ابنته، سواء بدنيًا أو جنسيًا أو نفسيًا.

٢ - أن يكون الأب ضعيفًا جبانًا أو سيئ السلوك لا يستحق الاحترام حتى وإن كان ظريفًا ومحبوبًا.

٣ - أن يكون الأب غائبًا إما بالموت أو بالهجر بحثًا عن ملذاته أو هروبًا

من مسئولياته، ويرجع تأثير موت الأب إلى ألا يرى أبناءه ولا يرعاهم فيتعلم الأطفال الاعتماد على أنفسهم وعدم الحاجة للآخر. كما يعتبر الصغير موت الأب خيانة، إذ تخلى عنه، وبعد أن يدرك الصغير مفهوم الألوهية قد يصبح موت الأب دافعًا لأن يبغض الصغير الإله الذي حرمه من أبيه.

ويجسد مفهوم لوم الإله موقف كتبه الصحفي الأمريكي الشهير والكاتب الساخر في جريدة نيويورك تايمز راسل بيكر في سيرته الذاتية فبعد أن مات والد بيكر وهو في سن الخامسة بكى الطفل حزنًا وقال لخادمتهم بيسي: «إذا كان الإله يفعل ذلك معنا فإنا مليئين بالكراهية ولم نعد في حاجة إليه.

قالت بيسي: إن الإله يحبنا كأبنائه.

سأل بيكر: إذا كان الإله يحبني فلِمَ أمات والدي؟

قالت بيسي: « يومًا ما ستفهم»

ويعلق بيكر قائلًا لكني لم أقتنع بما قالت، كما لم أجد ما أقول لها.

ويضيف يومها قررت أن الإله لا يبالي بنا عكس ما يقول كل من حولي، وقررت ألا أثق بالإله بعد ذلك اليوم، وفي سن الخامسة أصبحت متشككًا، بعدها لم أبك قط مخاطبًا الإله ولم أتوقع منه أي اهتمام ولم أعد أحبه.

وأشد الفترات تأثيرًا في الابن إذا مات أبوه هي الفترة العمرية من ٣: ٥ سنوات فهي السن التي تتعمق فيه العلاقة بالأب، إذ قبلها تكون العلاقة مع الأم غالبة، وبعدها تكون العلاقة مع الأصدقاء وهي كذلك السن التي يبلغ فيها الخوف والتعلق من فراق من نحب أقصاه. وأخيرًا هي السن التي تتكون فيها شخصية الطفل فيبدأ صراعه ضد الأب (عند المؤمنين بعقدة أوديب).

جـ- يؤكد بول فيتز أن دور التقصير الأبوي في تبني الإلحاد ليس دورًا حتميًا

يلزم الابن أن يتبنى الإلحاد. فهناك دائمًا مجال لحرية الإرادة والاختيار بين الإيمان والإلحاد، إن ذلك يعني أن التقصير الأبوي «ييسر» طرق الإلحاد.

ولإثبات دور فرويد» الإرادة والاختيار «قام بول فيتز بدراسة تحليلية نفسية لمفكرين وفلاسفة عانوا التقصير الأبوي لكنهم تبنوا الإيمان، ومن هؤلاء «سير أنتوني فلو» فقد أثبت السير أنه كان يكره أباه وتبنى الإلحاد في سن الخامسة عشر، وظل ملحدًا بل زعيمًا للإلحاد حتى تجاوز الثمانين من عمره. ثم راجع أنتوني فلو في سنواته الأخيرة أدلته العلمية والفلسفية وانتقل إلى الإيمان بالإله.

ومثله أيضًا «ك.س. لويس» الذي ظل ملحدًا حتى سن الأربعين ثم آمن بالمسيحية وصار أكبر رجال اللاهوت المسيحي في القرن العشرين، بل واعتبره الكثيرون قديسًا، معنى ذلك أن العوامل المساعدة لا تلغي المسئولية الفردية، سواء في الإلحاد أو في الإيمان أي أن وجود التفسير ليس عذرًا.

د – بالرغم من بساطة ووضوح نظرية التقصير الأبوي فلا ينبغي أن نتجاوز الصعوبات والآلام والتعقيد الذي يقف وراء كل حالة على حدة.

علينا أن نتفهم حجم المأساة التي يكون فيها الطفل يحبط في أبيه أو يكرهه، فالطبيعي أن الطفل يريد أن يحب أباه. ويتزايد حجم المأساة حين تدرك مدى معاناة الملحد النفسية والتي يعبر عنها أستاذ الرياضيات الأمريكي «جيفري لانج «بعد أن عرف الإيمان: «إلهي إن كنت أعود إلى الإلحاد فدعني أموت قبل ذلك».

لا شك أن الأسس النفسية للإلحاد معقدة للغاية، ولا شك أن التقصير الأبوي من أهمها ذلك المفهوم الذي وضع أسسه فرويد وفصله د. بول فيتز.

دراسة فيتز لظاهرة الإلحاد وتطبيقاتها على كبار الملاحدة:

إن الإلحاد الذي يقصده فيتز في الدراسة هو رفض الإيمان بالإله بالمعنى الذي تتبناه الديانات الإبراهمية، وهوالإله الذي يقيم حق الإنسان. وهذا المفهوم يختلف عن الإله بالمعنى الذي يقصده بعض الربوبيين باعتباره القوة المطلقة أو الذكاء المطلق.

ومثل كل الدراسات النفسية، اعتمد بول فيتز في دراسته على التأمل وتحليل سير مشاهير الملحدين سواء كانت سيرهم الذاتية التي كتبوها بأنفسهم أو تلك التي كتبها عنهم آخرون.

وتتكون مادة البحث (اختيار العينة) من مشاهير الملاحدة من كبار المفكرين خاصة الفلاسفة ممن مثل الإلحاد محورًا أساسيًّا في فكرهم ومكانتهم الاجتماعية ويعتبر معظمهم من مؤسسي وأعمدة الفكر الإلحادي المعاصر.

وقد استبعد بول فيتز من مادة البحث (سمات المستبدين) العلماء والفنانين، فالعلماء يلتزمون بالمنهج العلمي المادي في البحث، والفنانون مشغولون بإبداعاتهم ومن ثم لا يمثل لكلا المجموعتين قضية محورية.

وكأي دراسة علمية دقيقة محترمة استكمل بول فيتز مادته البحثية بمجموعة من المتدينين للمقارنة - المجموعة الحاكمة - وقد اختار فيتز هذه المجموعة من المتدينين الذين نشأوا في نفس المجتمعات وفي نفس الفترة التاريخية للملاحدة وذلك من أجل استبعاد تأثير الظروف الاجتماعية على إلحاد الملاحدة، ومن ثم يصبح العامل المؤثر الأساسي هو تربية الوالدين لصغارهم.

والآن جاء دور استعراض أهم الشخصيات - المادة البحثية - التي بني عليها بول فيتز نظريته وسنركز هنا على سبع مجموعات:

- ملاحدة مات أباؤهم أو هجروهم مبكرًا.

- ملاحدة كان آباؤهم قساة أو ضعفاء.

- كبار السياسيين الملاحدة.

- الملاحدة الجدد.

- الأب الملحد.

- الإلحاد بين الرجال والنساء.

- المتدينون وآباؤهم.

وبالمجموعة الأولى نبدأ:

شخصيات إلحادية مات آباؤهم أو هجروهم مبكرًا

١ - فريدريخ نيتشه: (١٩٠٠ - ١٨٤٤)

بدأ بول فيتز شخصياته الإلحادية بنيتشه باعتباره أشهر الملاحدة على الإطلاق، أجمع كل من كتب في سيرة الفيلسوف الألماني نيتشه أن آراءه الصادقة كانت انعكاسًا لشخصيته المعقدة، بل إن نيتشه نفسه أكد ذلك حين قال: «تتوقف فلسفة الفيلسوف على بنيته الشخصية، وفي حالة الإلحاد وبصفة خاصة تعتمد هذه الأفكار على الغريزة»، كان نيتشه شديد التعلق بوالده ووصف وفاته - في سن السادسة والثلاثين بعد أن ظل يعاني في العام الأخير من حياته من مرضًا عقليًا - بأنها كانت الخسارة الكبرى التي لا يمكن نسيانها، وكان عمر نيتشه وقتها خمس سنوات ويصف نيتشه فيما بعد مشاعر العائلة يومها، لقد بكت أمه بشدة وشكت للإله أن زوجها قد مات، ويقول نيتشه: كنت أعلم أن الموت يعني الفراق التام فبكيت وحزنت بشدة وأدركت أنني أصبحت يتيمًا وأن أمي أصبحت أرملة ويصف نيتشه في طفولته بأنه لا يثق برحمة الله.

وفي سن الرابعة والعشرين كتب نيتشه يعبر عن احتياجه الشديد لوالده ولنصائحه وإرشاداته وبالرغم من حبه لأبيه في هذه السن، إلا أنه كان يعتبره ضعيفًا ومريضًا ولا يتمتع بقوة الحياة وقبل الانهيار العصبي الذي أصاب نيتشه - ولم يشف منه - كتب يقول: إنني مجهد وعصبي للغاية ولا شك أني ورثت هذه العلة عن أبي الذي مات نتيجة لافتقاده قوة الحياة، ويرجع نيتشه فقدان قوة الحياة عند والده إلى المسيحية فهكذا كان المسيح.

ويقف رفض نيتشه لضعف المسيحية وضعف والده وراء مفهوم «السوبر مان» الذي يسيطر على فلسفته فهو تعبير عن تبني القوة وتبني الصلابة. وقد استخدم نيتشه الوحش الأشقر للإشارة إلى الرجل الألماني القوي وقد انعكس ذلك المفهوم في إعجاب نيتشه بالإله اليوناني الوثني ديونيسيوس الذي يرمز لقوة الحياة.

وينعكس مفهوم السوبر مان أيضًا في اختيار نيتشه للمرأة وسعيه لتشويه صورتها، وظهر ذلك في قوله لأحدهم: إذا ذهبت للقاء امرأة لا تنس أن تأخذ معك سوطك - الكرباج - كما يظهر ذلك أيضًا حين يقول: تتجلى سعادة الرجل في قوله: «أنا سأفعل» أما سعادة المرأة تتجلى في قولها «هو سيفعل»، ومن دوافع نيتشه للبحث عن القوة في الذكورة قيام آن وعائلتها برعاية الأسرة والإنفاق عليها فأصبح حتى ذهب إلى المدرسة الداخلية في سن الرابعة عشرة يعيش في بيت مسيحي تشيع فيه المفاهيم المسيحية والأنثوية (أمه - أخته الصغرى - جدته -عماته) وقد صور له هذا البيت أن مفاهيم المسيحية - بما فيها من ضعف وخضوع - خاصة بالنساء.

وفي مدرسة البلدة وجد نيتشه صعوبة في التعامل مع الأولاد الآخرين، وكانوا يسخرون منه ويصفونه بالقس الصغير لجديته وقدرته على التحكم في نفسه وسلوكه النفسي وزاد من هذا الانطباع عدم مشاركته للأولاد في

ألعابهم بسبب ميوله الانعزالية ومعاناته الصحية المتكررة وإصابته بقصر النظر.

وللتغلب على ما واجهه من مصاعب اجتماعية في سنه الصغيرة، كان نيتشه يحرص على تنمية إرادته والاشتهار بذلك فعندما أراد أن يظهر شجاعته للأولاد الآخرين، أخذ مجموعة من عيدان الكبريت وأشعلها ووضعها في كفه حتى سقط أحدها من يده بعد إصابتها بحروق سيئة.

والمطالع لسيرة نيتشه الذاتية يلاحظ تعارضًا قويًّا بين فلسفته المفرطة في الذكورية القاسية حتى إنه يقول: «إنني بطبيعتي أحب الحرب، والهجوم إحدى غرائزي «وبين حقيقته كشخص محافظ مفكر كثير المرض والشكوى من الصداع وآلام المعدة وأعراض مرضية أخرى ترجع إلى إصابته بمرض الزهري الجنسي وكثيرًا ما كانت هذه الأمراض تقعده في الفراش وتقوم أمه وأخته الصغرى برعايته، لذلك فإن هذه الفلسفة الذكورية القاسية ليست إلا قناعًا تختفي وراءه حقيقة نيتشه المحافظة وأيضًا الضعيفة، ويمكن فهم فلسفة نيتشه باعتبارها صراعًا رهيبًا للتغلب على ضعف والده المسيحي المشوب بالخوف؛ ذلك الخوف الذي عبر عنه نفسه في رؤيا رآها بعد موت والده بستة أشهر فقد رأى أجراس الكنيسة تدق ووالده يخرج من القبر يدخل الكنيسة ويعود منها حاملًا طفلًا صغيرًا إلى القبر بعدها بأيام قليلة مات أخوه الأصغر جوزيف.

تبين سيرة نيتشه أن حياته وفلسفته الإلحادية كانت رد فعل فكريًّا عنيفًا ضد موت أب مسيحي متدين كان الابن يحبه، وفي نفس الوقت يعتبره ضعيفًا مريضًا. لقد كان أبوه يمثل قوة الموت وهو نقيض مثال السوبر مان الذي تبناه نيتشه والذي يمثل قوة الحياة لذلك يمكننا اعتبار فلسفة نيتشه عن السوبر مان بحثًا عن الأب المثالي الذي افتقده.

٢ - آرثر شوبنهور (١٨٦٠-١٧٨٨):

تقوم فلسفة شوبنهور على النظرة التشاؤمية للحياة، حتى إنه لُقِّب بـ «المتشائم الكبير».

كان والد الفيلسوف الشهير شوبنهور تاجرًا ثريًّا مشهورًا وكان مهتمًّا بمعالم الفكر خاصة كتابات فولتير، وبالرغم من كثرة سفر الأب في تجارته وانشغال الابن بالمدرسة فقد كانت علاقتهما قوية، وربما كان الخلاف الوحيد بينهما هو رغبة الأب في أن يصبح ابنه تاجرًا مثله وقد اضطر أن يطيعه، وربما كان لموت الأب ميزة واحدة وهو أنه سمح لشوبنهور بدخول عالم الفلسفة.

وفي عام ١٨٠٥، حينما كان شوبنهور في السابعة عشرة من عمره، مات الأب وأشيع أنه انتحر، بأن قفز من شباك الطابق الثالث في بناية إلى قناة مياه ملاصقة، وقد وصف شوبنهور يوم وفاة أبيه بأنه أحلك يوم في حياته.

وأما علاقة شوبنهور بأمه فكانت سلبية للغاية حتى قال أحد المؤرخين لسيرته: إنه لم يحصل على الحب الأول - حب الأم -. لم تكن أمه راغبة في إنجابه، وكانت تعتبر أنه قد حد من حريتها، لذلك كان يعقها بشدة، وبالرغم من أن أم شوبنهور أعلنت أن أباه قد انتحر، إلا أنه حملها مسئولية دفعه للانتحار، لقد كره شوبنهور النساء؛ فلم يتزوج، وقطع علاقته بأخته، ولم يقم معهن أية صداقات.

يصف شوبنهور طفولته بأنها كانت باردة يملؤها الخوف والوحدة، وكانت المربيات والخادمات يتولين تربيته وتمثل الفترة العمرية من ثماني سنوات - بداية اهتمام والده به - إلى الثامنة عشرة - انتحار والده - الفترة الوحيدة السعيدة في حياته.

ويصف شوبنهور دخوله عالم الإلحاد ويرجع ذلك إلى أنه كان دائمًا شديد

الاكتئاب والتشاؤم، وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره تساءل: أهذا هو العالم الذي صنعه الإله؟ إنه لا يكون إلا صناعة الشيطان. كان شوبنهور شديد الشعور بالوحدة لما عاناه في طفولته من إهمال أمه ثم فقدان أبيه. كان يري أن كل شيء في الحياة تافه، وأنها فراغ ولا معنى لها، وليست إلا حزمًا من المعاناة، وربما كان فقده المشاعر وراء اهتمامه بالفكر البوذي الذي يقوم على العدم ورفض كل الرغبات، خاصة تعلق الإنسان بالدنيا والأشياء والآخرين وحبه لهم.

لقد عاش شوبنهور حياته دون أن يتعلق بأحد، ومن ثم لا عجب أن أنكر الإله وأنكر عالم الغيب كله.

٣ - ديفيد هيوم (١٧٧٦ - ١٧١١):

كان ديفيد هيوم ملحدًا في وقت كان للإلحاد مخاطره الاجتماعية والسياسية وهو كان أستاذ تاريخ استكلندي.

ويعرف المؤرخون القليل عن طفولة هيوم وحياته، ومما نعرفه أنه نشأ في عائلة على قدر من الشهرة والثراء، وكان الكثير من رجالها محامين، وكانت علاقة ديفيد جيدة بأمه وأخيه الأكبر وأخته الصغرى، تربى هيوم كمسيحي وترك الدين في شبابه المبكر بعد أن قرأ «لجون لوك» و«صمويل كلارك»، والمتابع لفلسفة هيوم يجد أنه كتب في رفض الديانات أكثر مما كتب في الموضوعات الأخرى.

والغريب أن من كان يرفض أفكار هيوم وفلسفته لا يملك إلا أن يحيه إذا تعامل معه، فقد كان لطيفًا ومهذبًا، والذي يعنينا أن والد ديفيد مات ولم يبلغ الثانية من عمره ولم يأت في سيرته أن أحد رجال عائلته قد تابع تربيته.

٤ - بستراند رسل (١٩٧٠-١٨٧٢):

هو بلا شك أشهر الملاحدة الإنجليز، وقد انتقد المسيحية بشدة

بسبب ما لاقاه من تشدد وتعنت رجال الدين، كان والد رسل من الطبقة الأرستقراطية، وكان على اهتمام بالسياسة خاصة اتجاهها الراديكالي، وقد تربى والده لورد، وربى رسل تربية دينية ثم تبنى الفكر الحر في شبابه وألقى المسيحية من الشباك.

مات والد فيلسوفنا وعمره أربعة سنوات، والذي جعل الأمر يزداد سوءًا أن والدته كانت قد ماتت وهو في الثانية من عمره، ثم تربى في بيت جده الذي مات وهو في السادسة، وقامت بالإشراف على تربيته بعد أمه وأبيه وجده جدته التي كانت مسيحية متشددة، وقد تتابعت على تربيته مجموعة من المربيات ماتت أقربهن إليه وهو في سن الحادية عشرة.

وبالرغم من نشأة رسل في وسط متدين، فقد تبنى الإلحاد في سن مبكرة، كرد فعل لكرهه المسيحية التي قدمتها له جدته. وفي نفس الوقت تروي ابنته في مذكراتها أنها تعتقد أن مكانًا ظل شاغرًا في قلب والدها لم يستطع شيء أن يملأه، وأنه ظل طوال حياته دائم البحث عن الإله بعد أن رفض إله المسيحية المتجسد. وكرد فعل لموت كل من أشرفوا على تربيته وأحبهم، كان رسل يعلن أنه يشعر بالضياع وأنه يبحث عن الأمان واليقين بنفس الدرجة التي يشتهي بها الآخرون الإيمان الديني، وكرد فعل لهذا الضياع كان رسل انطوائيًا انعزاليًا كثير التأمل والحب للطبيعة، فأحب القمر والنجوم والسماء والبحر أكثر من أقرب الناس إليه، ولم يكن يجد سلواه إلا في القراءة ولا شك أن إنسانًا يرفض العلاقات والعواطف الإنسانية يكون رافضًا للعلاقة بالإله.

ويوصف رسل بأنه رجل المتناقضات وظهر في تساؤله، ويعتبر الفيلسوف الفرنسي الشهير أحد أشهر الملاحدة في القرن العشرين وتقوم «الفلسفة الوجودية» التي أسسها سارتر على الإلحاد، ويمكن تلخيص أفكارها في:

«إذا أنكر الإنسان الإله فلا بد من الإيمان بمصدر آخر يحدد لنا قيمنا، وإذا قلنا إننا نحن الذين نحدد القيم فذلك يعني شيئًا واحدًا هو لا معنى ولا وجود يسبق وجودنا، أي أنه قبل وجودك كانت الحياة لا شيء، ومثلما أنك أنت الذي تحدد القيم التي تريدها، فلك أن تعطي الحياة المعنى الذي تريده».

٥ - جان بول سارتر: (١٩٠٥ - ١٩٨٠)

وإذا تأملنا حياة سارتر وجدنا أن والده مات وقد بلغ من العمر خمسة عشر شهرًا، وبعد موته عاش سارتر وأمه مع والديها، وكان جده يتابع تعليمه لكنه كان ذا شخصية ضعيفة ولم تكن العلاقة بينهما قوية، وفي المقابل توثقت العلاقة بين الطفل وأمه إلى أبعد حد، فكانت ترعاه في كل شيء مما نما العلاقة الأوديبية، لم يدم هذا الحلم الأوديبي كثيرًا، فقد انتهى بزواج الأم الأرملة وهو في سن الثانية عشرة، واستقلت في بيت منفصل مع زوجها وبالرغم من جهود زوج الأم للتقرب من الطفل سارتر فقد رفضه بشدة، لقد ترك هذا الزواج في نفسه جرحًا عميقًا لم يندمل طوال حياته.

لقد نشأ في رعاية أمرأة، أما الرجال فقد كانوا مثالًا للتقصير؛ فأبوه مات وهو طفل صغير، وجده الذي حل مكان أبيه كان ضعيفًا، وزوج أمه استولى على أمه المحبوبة.

لذلك لم يمض على زواج أمه سوى عام واحد حتى أعلن الصبي سارتر إلحاده، وفي سيرته الذاتية يعلن سارتر أن موت أبيه كان حدثًا طيبًا كما ورد في رواياته أن الآباء عبء يطعنون أبناءهم، ولا يتركون لهم فرصة ليصنعوا أنفسهم، لذلك تكررت في هذه الروايات عبارات مثل: (أريد أن أقتل الأب داخلي - لا يوجد أب طيب- لا تعتب على شخص بل اعتب على رابطة الأبوة العفنة).

وهل جرب سارتر الأبوة ليعرف عنها هذه السوءات؟ لا تفسير لهجوم

سارتر الشرس على الأبوة طوال حياته الفكرية إلا اعتراضه الشديد على يتمه .

باختصار كان موت والد سارتر مؤلمًا للغاية، حتى إنه أنفق حياته كلها يحاول إنكار تأثره بهذا الحدث، وقد كان تأسيس «الفلسفة الوجودية» هو آلية دفاعه النفسي فهي تقوم على أن غياب الإله (الأب) هو البداية لتشكيل حياة جيدة طيبة فاضلة.

ولا ينسدل الستار على حياة سارتر (مثل مسرحياته) إلا على مفاجأة، بينما هو على فراش الموت، طلب سارتر من رفيقته سيمون دي بوفوار أن تأتي له بكاهن ليعترف له؛ ليموت على المسيحية، وقد ترجع أهمية هذا الموقف في سياق كتابنا إلى أنه يثبت «حرية الإرادة الإنسانية» بالرغم من الخلفيات النفسية الدافعة لتبني الإلحاد، فبالرغم من أن تنشئة سارتر قد وجهته طوال أكثر من سبعين عامًا إلى طريق الإلحاد فإنه راجع موقفه في الساعات الأخيرة من حياته واختار بكامل إرادته الحرة طريقًا آخر.

ويرفض البعض اعتبار موقف سارتر تعبيرًا عن الإرادة الحرة ويرجعونه إلى الخوف من مواجهة الموت وهو ما عبر عنه المثل الإنجليزي القائل: «لا يوجد ملاحدة في خنادق الحرب».

وإذا كنا نوافق على أن مواجهة الموت قد تدفع الإنسان للإيمان بالإله فذلك لا يمنع أن هذا الاختيار يتطلب حرية إرادة بدليل أن العديد من الملاحدة ماتوا على إلحادهم ولم يذكر عنهم التاريخ أنهم قد غيروا مواقفهم، وقد نُقل عن سارتر أنه كان يعيد النظر في موقفه في السنوات الأخيرة من حياته وليس فقط وهو على فراش الموت، ففي لحظات من الشك في الإلحاد، صرح الفيلسوف الكبير قائلًا: «لا أتحمل أن أرى نفسي كومة من التراب الذي ظهر بالصدفة في الكون، إني أري نفسي كائنًا محسوبًا حسابه سبق

تقديره استدعي لغاية كائن لا يوجد إلا كخلق لإله حكيم، إن هذا يتعارض مع الكثير من آرائي لكنها فكرة تطفو على السطح كل حين وآخر، إن هذه الفكرة تدفعني لأن أعيد النظر في منظومتي الفكرية».

وبالفعل أعاد سارتر بناءه الفكري وهو على فراش الموت.